ليتَ النساءَ كَمثل هذي!

محمد السواعير [1]

أعرفُها ولا أعرفُها!! أعرفُها منذ أمدٍ بعيد، ومنذُ شببتُ عن الطّوق، واسمُها يتردّدُ عبر الزّمان والمكان، قولًا وفعلًا وهما واضحانِ للعَيان، عرفتُها بصمودِها وأنفتِها وكبريائها وعظمتِها، ولا أعرفُها، فلم ألتقِها إلا قبل عقدٍ ونيّف من تاريخها الزّاهي ومسيرتها الخيّرةِ الخالدة.

هي نابلسيّةُ المولد، قُدسيّة التّعلُّمِ والنّهوض، سلطيّةُ الانطلاق، فلسطينيّةُ العشق، أُردنيّةُ الهوى، عربيّةُ المجد والتاريخ، قضيّتُها الوطنُ الكبير، ومُهجتها الوطنُ الصّغير، وروحُها من المحيطِ إلى الخليج، لم تستسلِمْ لآلامِ الفقدِ وحُرقةِ الانكسار، وتقلّب الأزمات واختلال الموازين، فقد واصلتِ المسير، وأصرّت على المُتابعة، لم يكبُ جوادُها، ولم تضعُفْ همّتُها، ما دام القلبُ ينبضُ بالحياة والدّمُ يجري في العروق، فعطاؤُها بلا قيود، وعملُها بلا حدود، وجودُها من الموجود.

وهذهِ المرأةُ امرأةٌ جامعةٌ في امرأةٍ مانعة، وامرأةٌ مانعةٌ في امرأةٍ جامعة، وقلّما توجدُ هذه الصّفاتُ بين النّساء، فقد جمعتِ العملَ مُختلفًا، ومَنعتِ الدّخول في ما لا ينفعُ وفيما لا يلزم، فاستحقّتْ الجمعَ والمنعَ في آنٍ واحد، وكأنّها النّص (جامعٌ مانع)، محطّاتُها ليست عابرة، وثوابتُها ليست واهية، هدفُها مُبتدأ وأثرُها خبر، فمن التعليم إلى التمريض، ومن الأسرّة البيضاء إلى قوائم العمل والتّشغيل، ومع الكبار سنًّا واحتياجًا وظروفًا في مراكزهم، إلى الكبار قدرًا وعلمًا ومكانةً في مُنتدى الرّواد الكبار، ولكلّ مجتهدٍ نصيب.

(1) شاعر وناشط ثقافي.

وهيَ ليست امرأةً عادية؛ فقد جَمعتْ أجملَ صفات النّساء، وتحدّت بعملِها، وصنعت مجدًا، فليتَ النّساءَ كمثل هذي!

وإن تَكُــن النّســاءُ كمثــل هــذي ... لفُضّــلتِ النّســاءُ علــى الرّجــالِ
ومـا التّأنيـثُ لاسـم الشـمسِ عيـبٌ ... ولا التّـــذكيرُ فخـــرٌ للهـــلالِ

حكيمةُ القول، صادقةُ الفعل، عظيمةُ الانتماء، حبُّها للعمل عبادة، ومُتابعتُهُ تصوُّف، تَجمعُ ولا تُفرّق، تطرحُ السلبيات وتُعظّمُ الإيجابيات، لم ولن تتقاعسَ عن فعلِ الخير حيثُ كان، وهي عشقُ الأرضِ وعَبقُ التّاريخ، وما زالت تُكرّر القولَ بأنّ هذه الأرضَ التي تمتصُّ جلد الشّهداء، تَعِدُ الصّيف بقمحٍ وكواكب، هي في أحشائِها ملحٌ وماءٌ، وعلى أحضانِها جرحٌ يُحارب.

***

مـــاذا أقـــولُ وليلتـــي قمـــراءُ ... والحـــبُّ مـــا جـــادت بـــهِ حـــوّاءُ
فاضـــت حنانًـــا والوفـــاءُ بروحهـــا ... مـــذ أشـــرقت بعيونهـــا الأضـــواءُ
وإذا النسّـاء إلـى الوجـود تسـابقتْ ... فـــازت بـــأولِ مقعـــدٍ (هيفـــاءُ)
تتوافـــدُ الأســـماءُ في صـــفحاتها ... فتميّـــزتْ بحروفهـــا الأســـماءُ
هي دوحةُ الماضي وطيبُ حضورِهِ ... بظلالهـــا يتفيّـــأُ البُؤســـاءُ
سـارت إلـى العليـاءِ ثابتـة الخُطـى ... فاستبشَـــرَتْ بقُـــدومها العليـــاءُ
ربّـت كمـا ربَّـى الرّجـالُ وأجزلـتْ ... لـــم تثنِهـــا عـــن عزمهـــا ضـــرّاءُ
وتعهّـــدت أبناءهـــا بكرامـــةٍ ... وبعـــزّةٍ يســـمو بهـــا العُظمـــاءُ
وكـأنّ رَجـعَ الصّـوتِ في كلماتهـا ... نغـــمٌ تُـــردّدُ سِـــحرَهُ الأصـــداءُ
فأطِـلْ إلهـي عُمـرَ سـيّدةِ النّـدى ... مـا خـاب فيـك مـع الـدّعاء رجـاءُ